هل مازال العراق يلتهم شعراءه؟

استذكاراً لروح الشاعرة نازك الملائكة

د.فاضل سوداني
مخرج مسرحي وكاتب - كوبنهاكن

بوفاة رائدة الشعر الحر وشاعرة الرومانسية العراقية نازك الملائكة (عن ٨٤ عاما، شيعت ودفنت بمقبرة للعائلة غربي القاهرة.) والتي عانت طويلا من الإهمال والنسيان العراقي والعربي، يكون العراق قد أنكر مبدعاً آخر من مبدعية (بالرغم من الاوضاع الأمنية التي يعانيها) وتكون المؤسسات الثقافية العربية قد تناست وأهملت لسنوات طويلة شاعرة وصاحبة مشروع حداثي في الشعر.

والمتتبع لحياة ومشروع الملائكة الشعري يعرف بأنها امتلكت منذ بدايتها اذناً حساسة تميز الموسيقى الشعرية ومحيطا عائليا ثقافيا فكتبت اول قصيدة وهي في العاشرة من عمرها.

وساعدها على ذلك الجو العائلي الهادئ . المثقف مما ادى بالجيران ان يطلقوا صفة الملائكة على سكنة البيت إضافة الى ان الوالدة كانت تنشر الشعر وكذلك ابوها الذي كان يتذوق الشعر وينظمه، وقد كتب موسوعة ضخمة (موسوعة الناس) بمجلدات عدة، واهتم على تنشئتها ثقافيا مما شجعها وساعدها على ان تمتلك أدواتها الشعرية الحديثة ، فبدأت تنظم وتلقي الشعر اثناء دراستها في دار المعلمين العالية.

وفي عام ١٩٤٧ صدرت لها اول مجموعة شعرية، تحت عنوان "عاشقة الليل". ومنذ البدايات دلل هذا على أن لليل همسه الخاص ومكانته قي تكامل رومانسية الشاعرة.

إلا ان قصيدتها الكوليرا عن الوباء الذي استفحل في مصر عام ١٩٤٧ كانت هي الحاسمة في مستقبلها الشعري الحديث والتي جعلت منها رائدة الشعر الحر الجديد :

(سكن الليل /اصغ، الى وقع صدى الانات / في عمق الظلمة، تحت الصمت، على الإموات
صرخاتٌ تعلو، تضطربُ

.....
الموتُ الموتُ الموتُ /يا حزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتُ.)

عندها شعرت بان هذا النوع من الشعر يمنحها الحرية والإحساس بتعاظم إيقاع القصيدة مما يترك أثرا في القارئ فيدفعه على أن يقبل على هذا النوع من الشعر، بل أن هذا الأسلوب منح القصيدة رحابة جعلها ترتاد آفاق جديدة وديناميكية في التأثير ، وهذا واضح من تكرار الكلمة أو الجملة وإيقاعها كما في القصيدة السالفة.

الا ان مجموعة (شظايا ورماد) التي صدرت في بغداد عام ١٩٤٩ ومقدمتها التي كتبتها الشاعرة عن اكتشافها الشعري الجديد فساعدها أن تضع يدها على جوهر الشعر الحر الذي بدى وكأنه شرارة لسعت شعراء العراق و الوطن العربي.

ولكن باكتشافها للشعر الحر (بعيدا عن الجدل في أولويتها أم أولوية السياب) بدأت عزلة الشاعرة الحقيقية مع الليل ورمانسية الحياة، والابتعاد عن تجمعات المثقفين وثرثرات الصالونات الادبية،حتى موتها الذي مهدت له بهذه العزلة الحياتية والثقافية بالرغم من مواصلة تحقيق مشروعها الشعري . و لأنها تعيش في مجتمع ذكوري تكون المرأة فيه تابعة للرجل مما جعل قضية ريادة الشعر الحر حتى هذه اللحظة لم تحسم بشكل جذري.

كانت الملائكة بالتأكيد واعية لمشروعها الشعري والنقدي ومن أجل هذا اصدرت اول كتاب في النقد الادبي هو (قضايا الشعر المعاصر). وكذلك مجموعتها (شجرة القمر) وصدرت مطولتها الشعرية (مأساة الحياة وأغنية للانسان) عن دار العودة ببيروت، ودواوينها المعروفة الأخرى.

ومنذ ديوانها (قرارة الموجة) في بيروت تميز ت الشاعرة باهتمامها بالفلسفة مما اثر في فكرها وشعرها ،و الفلسفة ساعدت الشاعرة على أن يمتلأ شعرها بالأسئلة الحياتية والوجودية والتي تعكس المشاعر النافرة في الذات الواحدة مما تجعل هذه الأسئلة من الذات الواحدة، ذوات متعددة.كما في التالي:

(أُحب وأكره ماذا أُحبُ / وأكره ؟ أي شعورٍ عجيب ؟ / وأبكي وأضحك ماذا ترى /يثير بكائي وضحكي الغريب ؟).. الخ

لقد دفعتها أسئلتها الى محاولة اكتشاف سر الكون والانسان شعريا لهذا فان الكثير من قصائدها تنحصر على جدلية الحياة والمتناقضات التي تشكل وجود وموت الإنسان:

الحب الكرة الحياة والموت الحركة والسكون الليل والنهار الصمت ..الخ .

وبالرغم من أن الرومانسيين العظام فكروا برومانسية الموت، إلا أن حساسية الملائكة ازاء جمال الحياة جعلتها تُنهض الطبيعة وكائناتها من جديد في شعرها.

ان الاحاسا س الشعري وبالتالي وعيها بان الانسان وبالرغم من قوة الموت القادرة على نفيه من الحياة وتحويله الى عدم الا انه في محطات نائية . والشاعرة في مكان ما القلق وصمت المتمرد فلا القرون الماضية تفهمها ولا الريح تعرف كنه الشعر والشاعر. لذا فان تفرد الذات هو سر الريح وديناميكية الحركة في الوجود، وبالرغم من هذا فإنها تؤكد بأن الشقاء لا ينتهي ابدا. هذا هو التناقض الجميل بين قدرة الانسان على الهيمنة على الوجود وسر شقائه غير المفهوم:

(الليلِ يسأل من أنا /انا سِره القلق العميق الأسود / أنا صمته المتمرد)... الخ

بالتاكيد ان الفلسفة اثرت على شعر الملائكة بحيث يبدو شعرا متشائما برومانسية واعية، وهذا منحها صدى لشعرها بين الشباب من الجنسين فكان الكثير منهم ليس في العراق فقط وانما في الوطن العربي يحفظون قصائدها عن ظهر قلب.

الشعرية عند الملائكة

ان تفكيك قصائد الشاعرة يؤكد لنا بانها كانت تعتمد على الصور الواقعية الدقيقة،لأن صورها الشعرية تعبر بدقة عن تفصيلات الواقع المرموز او الرومانسي، كما هو الحال في لوحات رسام كلاسيكي مبدع. وهذا بالتأكيد يشمل جميع شعرها. ولكن كان هذا واضحا في قصيدتها (مر القطار) وبالرغم من انها تبدو كونها قصيدة تصور حدثا واقعيا وصورا يمكن ان يراها أي انسان في المحطات والسفر وتكرار صور المسافرين وسأمهم من طول المسافة بينهم وبين الوصول الى المحطة الأخرى. وبالتأكيد لابد أن يكون من بين هؤلاء عاشق او شاعر ينتظر الوصول الى حبيبته او ينتظر إلهامه، إضافة الى تلك الظلال التي نرها عندما يخطف القطار غير مبال في محطات نائية . والشاعرة في مكان ما تنظر مجيء حبيبها الغائب... الخ من الصور الكثير ة. أقول بالرغم من ان كلا يبدو واقعيا لكن طبيعة جو القصيدة وبعدها الرمزي يجعنا نفكر بان القطار هو الزمن الذي يمر ولا يتوقف، وان هؤلاء البشر هم الذين يسحقهم الزمن وان السأم والأنتظار هو الذي يجعل من الحياة غير محتملة ، مادامت المحطات نائية ومجهولة.

ويعتبر هذا جزءا من قدرة الشاعرة على ان تمنح شعرها الرومانسي ابعاداً جدية وقدرة على طرح سؤالها الفلسفي والوجودي والمصيري احيانا، إضافة الى البعد الدرامي الذي يجعل من القصيدة مشاهد قريبة من روح المسرح.

أن إهمال شاعرة مثل الملائكة لسنوات طويلة يذكرنا بمأساة وغربة السياب والذي لم يحزن لموته سوى المطر،ويذكرنا أيضا بان النظام العراقي السابق اسقط الجنسية عن الجواهري والبياتي وكان سببا في نفي الكثيرين من المبدعين من الشعراء والفنانين والمبدعين العراقيين، وأن نظام الطوائف والكره القومي وبلد الحرب الاهلية غير المعلنة يكره ويحارب كل ما هو إبداع وفن وفي مقدمتهم القاتل والمتهم الهارب وزير الثقافة .

ولهذا فإنني اهمس حزني لعائلة الملائكة وادعوهم أن يعملوا على ان يبقى جثمان الشاعرة مدفوناً في حاضنة المبدعين القاهرة حتى اللحظة التي يكف فيها ساسة العراق ومؤسساته وبرلمانه عن إلغاء دور المثقف والمبدع العراقي، ووقف التحارب وقتل العراقيين والصمت الملغوم على تدخل دول الجوار بالشأن العراقي ، وحتى تظل شاهدة قبر الملائكة تشير إلى وحشية التهام العراق الدائم لمبدعيه ، وحتى تكتمل قصيدة وحدتها وعزلتها التي عانت منها كشاعرة مبدعة في حياتها و موتها.

علي بدر .. الركض وراء الذئاب أو فكر ما بعد الثورة

حسين الكناني
كاتب - لندن

السرد نتعرف على حياة هذا الصحفي الذي يقوم بسرد الأحداث، وبالبحث عن هؤلاء الشيوعيين الهاربين.

إنه صحفي أميركي مشهور ولامع، من أصل عراقي يبلغ من العمر الخامسة والأربعين، يعمل باسم مستعار محللا للأخبار في قسم الشرق الأوسط من الوكالة، كان قد ذهب إلى أميركا في العشرينيات من عمره للدراسة أولا، ثم تزوج من أميركية، وتجنس بالجنسية الأميركية، كان في بداية حياته يساريا، إلا أنه يتأثر شيئا فشيئا باليمين المحافظ، ويصبح من أتباع المفكر اليميني ليو شتراوس، ثم يبدأ مسيرة أخرى في الدفاع عن أفكار اليمين المحافظ مثل بول وولوفتز وريتشارد برل وفؤاد عجمي وكنعان مكية وغيرهم، ويتوصل إلى هذه النتائج من خلال علاقته السرية مع عشيقته البولونية فيرسولوفا، والتي يطلق عليها فيفي.

بين هاتين الحياتين، العلنية مع زوجته وابنه وابنته، والسرية مع عشيقته، وبين تجاذبه لفكرين معا، الفكر اليساري القديم بعدالته والفكر اليميني بهيمنته وتقدمه، يبدأ هذا الصحافي بالبحث عن الوثائق والمعلومات والأخبار الصحفية التي تتناول حياة هؤلاء الثوار في العراق، حيث تتقدم الرواية بشكل بارع بالمزج بين خطين متوازيين، الأول يتناول المسيرة الفكرية لهذا الصحافي العراقي الذي يعيش في أميركا، والخط الثاني أثر حياته الجديدة في إعاقة تقدم فكره اليساري الذي جلبه من منطقة الشرق الأوسط، وإيمانه شيئا فشيئا بالفكر اليميني.

يسرد هذا المراسل مراحل تطور حياته، وتفكيره، ووصوله إلى أميركا، وتحولات فكره، وعلاقته بالشرق الأوسط، حيث يعتقد أن علاقته به تعتمد على المشاكل هناك، كلما زادت المشاكل في الشرق الأوسط كلما كبر الاهتمام به في أميركا، حتى الوصول إلى النقطة الحاسمة، فبعد سقوط صدام حسين يبدأ هذا الصحافي بالمجاهرة للمرة الأولى باسمه، ويبدأ بإقامة علاقات مع الجالية العراقية التي كان يتجنبها فيما مضى، وبعد أن تنتدبه الوكالة في هذه العملية، عملية البحث عن الشيوعيين الهاربين إلى أثيوبيا يبدأ هو بإقامة علاقات متعددة مع العراقيين في الخارج والداخل، بحثا عن المعلومات والوثائق والصحف التي تناولت هؤلاء العراقيين.

من كل المقابلات التي أجراها مع ثوار متقاعدين التقى بهم في أميركا وأوربا، ومن كل الوثائق التي وصلته، أو التي حصل عليها من العراق، أو الوثائق التي حصل عليها عن طريق الوكالة، هنالك ثلاث شخصيات ركز عليها قبل الرحيل إلى أفريقيا، الشخصية الأولى، هي: الصحفي جبرٍ سالم: ثوري معروف، كان يعمل صحفياً بالقطعة، جاء من الناصرية إلى بغداد في الستينيات، وقطن في حجرة قذرة في البتاويين وسط العاصمة، وكل الوثائق التي بين يديه تعرفه بأنه ثوري نادر.

الشخصية الثانية هو أحمد سعيد: ثوري عقائدي، عاش طفولته وشبابه في بغداد، ثم التحق بالثورة الشيوعية في الأهوار، وقد شارك في حرب العصابات في الجبال أيضاً، ثم انتقل إلى بيروت بعد أن أطاح البعثيون بالثورة، ثم انتقل إلى أديس أبابا بعد صعود الضابط الشيوعي منغستو إلى السلطة في أثيوبيا. الشخصية الثالثة هي ميسون عبد الله التي أحبها أحمد سعيد ورافقته في مسيرته النضالية، من الأوكار الحزبية إلى حرب العصابات، واشتهرت بمقاومتها الضارية للبعثيين في ذلك الوقت، وكسجينة سياسية عانت من أكثر صنوف التعذيب شراسة ووحشية..ومن خلال هذه الرواية نتعرف على العمل الشاق في الحركة السرية الثورية في بغداد حيث كان يجلس الشيوعيون في مقهى المعقدين ومقهى البرلمان، وتتوالى الأحداث حتى يجمع هذا الصحفي أكبر قدر ممكن من المعلومات، وبعد ذلك يرحل إلى أفريقيا.

لا تتحرك الرواية فقط على الأحداث، إنما تتحرك وسط التحليل السياسي والثقافي الاجتماعي لتحولات فكر يساري، تروتسكي تحديدا إلى فكر يميني محافظ، فالبطل قادم من الشرق الأوسط، يعيش في نيويورك، متزوج من امرأة أميركية، ويخونها مع مهاجرة بولونية، ولديه أولاد أميركيون لا يعرفون شيئاً عن الشرق الأوسط ومشاكله، كان مؤمناً باليسار، وبالحركات الثورية، ومتعاطفاً مع القضية الفلسطينية ومع الاستقلال، ويعمل في مؤسسة أميركية يملكها مردوخ، أكبر كارتل صحافي في الغرب. وهكذا تتوالى تناقضات هذه الشخصية: فهو يساري من الداخل ولكنه مؤمن بالديمقراطية وبحقوق الإنسان مثل أكثر الغربيين، يميني في الوكالة ومنفتح مع عائلته جداً، لم يكن يوماً ضد الحداثة أو معادياً للغرب، وقد درس في جامعة شيكاغو، حيث قرأ منظري المحافظين الجدد مثل ليو شتراوس ومايكل ليدن وغيرهم. حتى آمن أن الديمقراطية يجب تعميمها بالقوة.

كان وصول البطل إلى أفريقيا عسيرا، فهو من جهة يجد في البحث عن الشيوعيين الهاربين من بغداد، ومن بطش النظام السابق، ومن جهة أخرى يقع في قبضة صحافيين أفريقيين، لاليت وآدم، حيث يعرفانه على أفريقيا زمن انهيار الثورة، ويخضع هو لابتزازهما. نصل في هذا الفصل إلى مفهوم جديد تطرحه الرواية هو فكر ما بعد الثورة، أو الفكر الناقد للثورة بعد انهيار وسقوط الثورة... مرض الشك الدائم، فهذا المرض ملازم للثوار، ما أن تصبح ثورياً حتى تصاب بهذه العدوى: الكل يتآمر ضدك. وحينما تكون لديك السلطة، والسلاح، والقوة، وكي تحافظ على نفسك ووجودك تعلن بداية قطع دابر المؤامرة (المصطلح الذي كان يستخدمه صدام ومنغستو لتصفية معارضيه)، وهكذا تبدأ حملة التصفيات بالمنشقين. أو المشكوك بولائهم. ومن ثم تتحقق أسطورة الثورة، الثورة مستمرة يعني أن الجريمة مستمرة بأبشع صورها..فالرواية تصور دولا كثيرة انهارت بهذا الشكل الكارثي لتعود أسوأ مما كانت عليه من قبل، تبتلي أولاً بالكولنيالية، ثم تأتي الثورة لتخلص الناس من نير الحكم الكولنيالي، لكن الثورة يقودها دكتاتوريون يعيدون السياسة الكولنيالية بصورة أبشع من السابق، وهكذا تبدأ الانشقاقات ويتم إجهاض الثورة. ولكن الأمر لا ينتهي إلى هذا الحد بل تبتلي البلاد بالحروب الأهلية والفوضى. وتصور الرواية أيضا رطانة المثقفين فيما بينهم وأينما كانوا: مصطلحات الماركسية. البنيوية. السيميولوجيا. آثار الصورة. ما بعد الكولنيالية..فالراوي يعتقد أن المثقفين في كل مكان يجترون الكلمات ذاتها، وهم خليط بين عبودية وتحرر، مزيج بين ثقافة وكراهية، خليط بين تقليد أوربي وتراث أفريقي فاضح..

وبعد ذلك تنتقل سوسينا المثقفة الماركسية الجميلة للعيش مع البطل في شقته، أما آدم فقد كان يلتقي معه كل يوم تقريبا، غير أن صديقيه الأثيوبيين يخفيان جميع المعلومات عنه ويتعمدان عرقلة اتصاله مع الشيوعيين الهاربين هناك، غير أنه وبالمصادفة يلتقي بإحد هذه الشخصيات، وهو جمال وحيد، يلتقي به في فندق المسكال في أديس أبابا. ويتعرف على حياته:

كان جمال وحيد يعيش في بغداد السبعينيات شيوعيا، ألقي عليه القبض بعد وصول صدام حسين إلى الحكم وشروعه بمذبحة الشيوعيين في العام ١٩٧٩، فيودع في السجن لمدة شهرين ويتعرض إلى تعذيب شديد، غير أنه يطلق سراحه بعد ذلك، فيهرب إلى الاتحاد السوفيتي ويعمل في وكالة نوفستي فترة من الزمن، بعد ذلك يطرد ويلاحق من الشيوعيين أنفسهم إذ يتهم بالعمالة للمخابرات العراقية، فيصل إلى أديس أبابا للعمل في مؤسسة أوربية لحماية الحيوانات البرية، ولا سيما الذئاب.

كانت المعلومات التي استقاها من جمال وحيد سطحية ومعكوسة، ولكننا في نهاية الرواية نتوصل شيئا فشيئا إلى حل لغز حياة جمال وحيد، ذلك أن خروجه من السجن كان لقاء اعترافه على رفاقه، غير أن هذا الاعتراف كلفه غاليا، لا بشكوك رفاقه به فقط، إنما جعله تحت وسواس الاضطهاد القهري، وفي الليلة الأخيرة التي يعترف فيها للبطل بكل تفاصيل حياته، يعترف له أيضا أنه لا يعمل في مؤسسة أوربية لحماية الحيوانات البرية، إنما في مؤسسة لمطاردة الذئاب في أفريقيا وقتلها وبيع جلودها، وما حماية الحيوانات البرية إلا غطاء لأعمالها.

نهاية الرواية هي المثيرة حقا، فتغرق الرواية بتحليل موضوعة الثورة والثوار، ومما يدهش حقا فضلا عن التفكير الثقافي والتحليل العميق هنالك القدرة الفذة على كتابة الرواية الفنية بكل صورها وأشكالها، ونادرا ما تجتمع هاتان الموهبتان في شخصية واحدة، ففضلا عن أن علي بدر يزودنا في رواياته بقدر هائل من الأفكار والمعلومات، نحن ندخل في رواية عظيمة في شخوصها، بارعة في أسلوبها، وهائلة في أحداثها.

طيور تعاقر الهجرة

محمد الذهبي

مشدوداً للذكرى
ماذا ستنجب الذكريات
سوى نهر يجري بالمقلوب
ووجوه سود
ورايات ترفع
على آثار دماء
وطيوراً تعاقر الهجرة
تتعلل بالبرد وبالحر
وجناح مكسور
دخلت الجنة
أين الحور؟
اتساءل أين الحور
غادرت فراشي
أرضا جرداء
توقفت الأرض
تناثر كل الكون
جسدي مزرعة للفحش
ومياهي آسنة
لم انظر في المرأة
حدقت كثيرا في الألف الأول
ما كان سوى درع وحصان
وسيف لم يرو حتى الآن

❖❖❖

صديقي الموت
سيعزف بالبوق
السنين الثواني
والثواني السنين
تأبطت شرها وانزوت
كنت فيها
أدب خلف الاماني
أفرغتها بالكؤوس
أمنية بعد أخرى
وانتشيت عبأتها بجناح البعوضة
أو طائر آخر أدخرته
لضياع الأماني العجاف

❖❖❖

ذاكرتي خيط مقطوع
وأنامل تعتصر الساعات
موانئ مليئة باللصوص
وسفني أشرعتها
كفن الأموات
الليالي السمان
أكلتها الليالي العجاف
ما بين الجدران
الفرعون سيحلم ثانية
يتذكرني الساقي
سبع عِجاف وسبع سمان
وسبع بها استغيث الجنود
وأخرى بها النيل يجري بعيداً
ألم ينته بعد حلم السقاة؟
وهذا السجين الذي بيع في السوق
يؤول أحلام من غادرته السماء

❖❖❖

وتلك السنابل تبكي تشيخ
وصارت تساوم حتى الطيور
ومنذا يؤول حلم السنابل
غير الطيور

❖❖❖

عيوني محض نتوءات
وثقوب أدمنت الظلمة
بالكاد رأيت غياب السور
طرقي علامات للاستفهام
لغتي أوتاد غرست قبل الفجر بخاصرتي
آكل أرضي؟
أشرب كأساً لا اعرف ما تحوي؟
قضمت أصابعي
واحترقت رئتاي
الخوف، الجوع، الموت، النوم
والجثث التي إينعت في حقولنا
لم تثمر جثثاً أخرى.

❖❖❖

قصيدتي
كم وضعت يدي فوق لهاثي
وأنا اكتب
آخر ما ينطق
من يستسلم للموت
هذيان بعيون مشدودة
في الحاضرين
من يقدر ان يسرقني
من الموت
كم مزقت من القصائد
وانا امشي في حقل الالغام
سيلتهم الموت القرى
يبحث عن صيد رأيته يتخطف الكثير.